نَحنُ نَقُصُّ عَليكَ

سلسلة أعظم القصص ١٤٤٢ هـ

طاوعت نفسي

قصة ابني آدم عليه السلام

مركز دلائل
Dala'il Centre

قرآنية تشويقات

tashweeqatq@gmail.com
@tashweeqatquran

طاوعت نفسي

من الروابط التي تربط الإنسان بغيره برابطة وثيقة جداً رابطة الأخوة ، اللصيقة به منذ أول مراحل حياته وأهمها ، تعلم أساسيات حياته مشاركة معهم ، ومر بمشاعره الأولى بينهم ، هذه العلاقة القوية المتينة لم يتعلمها الإخوة ولا تلقنوها ، هي نمت فطرة فيهم ، وتعمقت جذورها داخلهم بامتداد أعمارهم ، حتى بات الأخ جزءاً من أخيه ، وقطعة من روحه . . هنا قصة ذكرت في القرآن سماها الله عز وجل " نبأ" بمعنى الخبر ، خولف فيها الأصل الفطري بين الإخوة بفعل تأثير هوى النفس ، وقعت أحداثها قبل أن يؤرخ التاريخ ، فلو في القرآن لما عرفناها : قال الله تعالى {**وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِن أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الآخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**} قال الطبري : " وكان سبب القبول أن المتقبَّل منه قرَّب خير ماله ، وقرب الآخر شر ماله ، وكانت قرابين الأمم الماضية قبل أمَّتنا ، كالصدقات والزكوات فينا ، غير أن قرابينهم كان يُعْلم المتقبل منها وغير المتقبَّل - فيما ذكر- بأكل النار ما تُقُبل منها ، وترك النار ما لم يُتقبّل منها ، و"القربان" في أمّتنا ، الأعمال الصالحة ، من الصَّلاة ، والصيام ، والصدقة على أهل المسكنة ، وأداء الزكاة المفروضة ، ولا سبيل لها إلى العلم في عاجلٍ بالمتقبَّل منها والمردود " .

طاوعت نفسي

بداية الاسترسال مع خطرات النفس :

{قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ} حمله على فكرة قتل أخيه حسده على مزية القبول ، وكانت هنا مجرد خاطرة في النفس . حوار بين الأخوين : {قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ} فأوضح له سبب ما تقدم به عليه ، **قال ابن زيد** : " فقال لأخيه : (إنك لو اتقيت الله في قربانك تُقُبل منك ، ولكنك جئت بقربانٍ مغشوش بأشرّ ما عندك ، وجئت أنا بقربان طيّب بخيرِ ما عندي) " . والمتقين ما كان عملهم خالصاً لله ، لا يرجون أحداً سواه .

{لَئِن بَسَطتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَاْ بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ} موعظة لأخيه ليذكره خطر هذا الجرم الذي أقدم عليه ، وفيه إشعار بأنه يستطيع دفاعه ولكنه منعه منه خوف الله تعالى ، **قال الطبري** : " فأما الامتناع من قتله حين أراد قتلَه ، فلا دلالة على أن القاتلَ حين أراد قتله وعزم عليه كان المقتول عالمًا بما هو عليه عازمٌ منه ، بل قد ذكر جماعة من أهل العلم أنه قتله غِيلةً " .

{إِنِّي أُرِيدُ أَن تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاء الظَّالِمِينَ} : أي إني أريد أن تبوء بإثم قتلي إن قتلتني ، لأني لا أقتلك ، فإن أنت قتلتني ، فإني مريد أن تبوء بإثم معصيتك الله في قتلك إياي . **قال ابن عطية** : " ليست هذه بإرادة محبة وشهوة ، وإنما هو تخيير في شرين ، كما تقول العرب في الشر خيار ، فالمعنى إن قتلتني فاختياري أن أكون مظلوماً سيستنصر الله لي في الآخرة " .

طاوعت نفسي

تصوير القرآن للمشهد :

قال الله تعالى : {**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ**}[المائدة :٣٠]

{**فَطَوَّعَتْ**} أي : رخصت ، وسهلت عليه الأمر ، وشجعته ، فصورت له أن قتل أخيه طوع سهل . والتعبير بلفظ " طوعت " دل على أنه تردد ابتداءً ، فلا يقال : "طوّعت الماء" ، ولكن يقال : "طوّعت الحديد" ، بمعنى أن الأمر كان صعباً عليه ، ونفسه متأبّية ، **قال ابن عاشور** : " ودل "طوّع" على حدوث تردد في نفس قابيل ومغالبة بين دافع الحسد ودافع الخشية ، فتردد مليا ، والتطويع : محاولة الطوع ، فشبه قتل أخيه بشيء متعاص ولا يطيعه بسبب معارضة التعقل والخشية ، وشبهت داعية القتل في نفسه بشخص يعينه ويذلل له القتل المتعاصي ، **قال الشوكاني** : " وفي ذكر تطويع نفسه له بعد ما تقدم من الحوار بينهما دليل على أن التطويع لم يكن قد حصل له عند تلك المقاولة " . فكأن الإيمان كان يعارض النفس ، إلا أن النفس قد غلبت وطوّعت له قتل أخيه ، أي : جعلته في استطاعته ، بتأثير الحقد والحسد الذي أصابه فواقع القتل .

{**فَقَتَلَه**} : والفاء للتعقيب ، بمعنى أنه لم يكن بين تزيين القتل والقتل مدة طويلة .

{**فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِين**} **قال الواحدي** : " خسر دنياه بإسخاط والديه، وآخرته بسخط الله عليه " .

طاوعت نفسي

قال بعض المفسرين : " كان يحمل جثة أخاه من مكان إلى مكان لا يدري ما يفعل به " ، قال الله :{**فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِين**}والفاء في "فأصبح" دالة على أنه ليس بين القتل والندم مدة طويلة ، فبمجرد قتله لأخيه شعر بالندم والحسرة ، وهذا مشعر بأن كل قاتل يندم من لحظة القتل ، والمفترض أنه بعد أن قتله شفى غلّه ، وينبغي له أن يُسَرّ ؛ لكن بعد أن هدأت شرّة الحسد الذي أخل توازن النفس وغيّب نداءات الصدق ظهرت موازين الاستقامة ناصعة في النفس ؛ لأن سعار الحقد انطفئ ، وظهر نور الحق ساطعا ؛ ليُعرف أن الحسد يقلب الموازين ، ويعمي البصائر .